موجز في تفسير سورة النَّصر

زوال الموانع من طريق دخول الناس في الإسلام

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة العاشرة بعد المائة في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، آياتها ثلاث، وهي مدنيّة، قيل إنّها آخر سورة تامّة نزلت من القرآن.**

جاء في النبويّ الشريف: «من قرأها فكأنّما شهد مع محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم فتح مكّة».

*** سُمّيت بـ«النّصر» لقوله تعالى في الآية الأولى منها بعد البسملة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.**

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

في رحاب السورة

هذه الآيات القصار في ألفاظها العميقة في محتواها تتضمّن مسائل دقيقة كثيرة، نشير إلى أبرزها استناداً إلى ما جاء في (تفسير الأمثل) للمرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي:

١- في الآية الأولى أضيف «النّصر» إلى الله تعالى ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾، وفي كثير من المواضع القرآنية نجد نسبة النصر إليه عزّ وجلّ، كما في قوله: ﴿..أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة:٢١٤، وقوله: ﴿..وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ..﴾ آل عمران:١٢٦.

ما يعني أنّ النصر في أيّ حال لا يكون إلا بإرادة الله تعالى، نعم، لا بدّ من إعداد القوة للغلبة على العدو، لكنّ الإنسان الموحِّد يؤمن أنّ النصر من عند الله وحده، ولذلك لا يغترّ بالنصر، بل يتّجه إلى شكر الله وحمده.

٢- في هذه السورة دار الحديث عن نصرة الله، ثمّ عن الفتح والانتصار، وبعدها عن اتّساع رقعة الإسلام ودخول الناس في دين الله زرافات ووحداناً، وبين هذه الثلاثة ارتباط علّة ومعلول. فبنصر الله يتحقّق الفتح، وبالفتح تُزال الموانع من الطريق ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

بعد هذه المراحل الثلاث -التي يشكّل كلّ منها نعمة كبرى- تحلّ المرحلة الرابعة وهي مرحلة الشكر والحمد.

٣- الفتح هنا مذكور بشكل مطلق، والقرائن تشير أنّه فتح مكّة الذي كان له ذلك الصدى الواسع المذكور في الآية، فقد شكّل صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، لأنّ مركز الشرك قد تلاشى بهذا الفتح، انهدمت الأصنام، وتبدّدت آمال المشركين، وأزيلت السدود والموانع من طريق إيمان الناس بالإسلام .

٤- في نهاية السورة يأمر الله سبحانه نبيّه -بل كلّ المؤمنين- بأمور ثلاثة ليجسّد آلاء الشكر، وليتّخذ الموقف الإيماني المناسب من النصر الإلهي، وهي: «التسبيح» و«الحمد»، و«الاستغفار». التسبيح تنزيه الله من كلّ عيب ونقص، والحمد لوصف الله بالصفات الكمالية، والاستغفار مقابل تقصير العبد.

هذا الانتصار الكبير أدّى إلى تطهير الساحة من أفكار الشرك، وإلى تجلّي جمال الله وكماله أكثر من ذي قبل، وإلى اهتداء من ضلّ الطريق إلى الله.

هذا الفتح العظيم أدّى إلى أن لا يظنّ فردٌ بأنّ الله يترك أنصاره وحدهم، ولذلك جاء أمر التسبيح لتنزيهه من هذا النقص، وإلى أن يعلم المؤمنون بأنّ وعده الحقّ موصوف بهذا الكمال، وإلى أن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة الله.

أضف إلى ما سبق، إنّ الإنسان -عند النصر- قد تظهر عليه ردود فعل سلبية فيقع في الغرور والتعالي، أو يتّخذ موقف الانتقام وتصفية الحسابات الشخصية، وهذه الأوامر الثلاثة تعلّمه أن يكون في لحظات النصر الحسّاسة ذاكراً لصفات جلال الله وجماله، وأن يرى كلّ شيء منه سبحانه، ويتّجه إلى الاستغفار كي يزول عنه غرور الغفلة ويبتعد عن الانتقام.

ثواب تلاوتها

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في نافلةٍ أو فريضةٍ نصرَه الله على جميع أعدائه، وجاء يَوم القيامة ومعه كتابٌ ينطق، قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من جسر جهنم، ومن النار، ومن زفير جهنم، فلا يمرّ على شيءٍ يوم القيامة إلّا بشّره وأخبره بكلّ خير حتّى يدخل الجنة، ويفتح له في الدنيا من أسباب الخير ما لمْ يتمنّ ولم يخطرْ على قلبه**».

شُعَب الخيرات

..ارجعوا مغفوراً لكم

* عن الإمام الباقر عليه السلام: «**مَن زارَ قبرَ الحسين عليه السّلام، في النّصف من شعبان غُفِرَتْ له ذنوبُه، ولم تُكتَب عليه سيّئةٌ في سَنتِه حتّى يحولَ عليه الحَول..**».

* وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا كان النّصفُ من شعبان نادى منادٍ من الأُفُق الأعلى: زائري الحُسين، ارجعوا مغفوراً لكم، ثوابُكم على ربِّكم ومحمّدٍ نبيِّكم**».

(الشيخ الطوسي، مصباح المتهجّد: ص ٨٣٠)

.. فإنّه قد نبّأني اللطيف الخبير

نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ بمنى في حجّة الوداع، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**نُعيت إلى نفسي**»، فجاء إلى مسجد الخيف، فجمع الناس ثمّ قال: «**نضَر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها من لم يسمعها، فرُبّ حامل فقه فليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرء مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم. أيّها الناس: إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا ولن تزلّوا؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبّأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض..**».

(تفسير علي بن إبراهيم القمّي)

التزكية والشكر
من أجَلّ الخصال الإنسانية

المرجع الديني السيد عبد الأعلى السبزواري

«مواهب الرحمن في تفسير القرآن» واحد من مؤلّفات الفقيه الكبير السيّد عبد الأعلى السبزواري المتوفّى في النجف الأشرف سنة ١٤١٤ هجرية، وقد قام أحد الفضلاء وهو السيد إبراهيم سرور بجمع المطالب الأخلاقية من هذا التفسير في كتاب أسماه «الأخلاق في القرآن»، ومنه اخترنا هذين الفصلين بعنوان «التزكية» و«الشكر».

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة:١٥١.

أصل الزكاة هو النموّ الحاصل من بركة الله تعالى، سواء أكان في الأمور الدنيوية، أم الأخروية، أم هما معاً، وقد استُعملت في القرآن الكريم بأنحاء شتّى:

فتارة تضاف إلى الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿..بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ..﴾ النساء:٤٩.

وأخرى إلى نبيّنا الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم كما في المقام ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾.

وثالثة: إلى ذات الفاعل، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس:٩-١٠. وهذ شأن جميع الصفات ذات الإضافة.

والتزكية هي الطهارة والتقديس عن الأدناس والأرجاس الظاهرية، أو الرذائل المعنوية، سواء كانتا بالنسبة إلى النفس كما في بعض النفوس السعيدة ممّا يفيض عليها اللهُ تعالى على نحو الاقتضاء، كما قال تعالى: ﴿..غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ مريم:١٩، أو بالنسبة إلى الأعمال والأفعال.

والرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم هو المَثل الأعلى في التزكية بجميع مراتبها، والقدوة الحسنة في الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، لا يدانيه أحدٌ ولا يجاريه فرد، ولقد جاهد في تزكية أمّته بدينه وتعاليمه وتشريعاته وبنفسه الشريفة، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ الأحزاب:٢١، وتطهيرهم من رذائل الأخلاق وسوء الاعتقاد، فإنّ بالتزكية يتخلّى الإنسان عن الرذائل والخبائث، ويتحلّى بالفضائل، فهي التربية العملية التي لها الأثر العظيم في مطلق التربية والتعليم.

وترتّبُ التزكية على التلاوة من قبيل ترتّب المقتضى على المقتضي، وقد يكون من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة كما في بعض النفوس المستعدّة.

ثمّ إنّه تعالى قدّم التزكية على التعليم في هذه الآية الشريفة وأخّرها عنه في دعاء إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿..وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ..﴾ البقرة:١٢٩.

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ للتزكية مراتب كثيرة، منها الإرشاد المحض وإتمام الحجّة، ومنها التخلّي عن الرذائل، ومنها التحلّي بالفضائل، ومنها التجلّي بمظاهر الأسماء والصفات الربوبية، ولكلّ واحدة منها درجات، فيُحمل ما قُدّمت فيها التزكية على بعض المراتب، وما أخّرت فيها على البعض الآخر.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، لأنّ بالتعليم يرتقي الإنسان من أدنى درجات البهيمية إلى أقصى درجات الإنسانية، فقد كان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم المعلّمَ الهادي لأمّته، يبيّن لهم ما انطوت عليه شريعته، وما اشتمل عليه كتابه الكريم من الأسرار والمعارف الربوبية.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فإن قلنا بمقالة الفلاسفة من أنّ الحكمة تارةً علمية، وهي العلم بحقائق الموجودات بقدر الطاقة البشرية، وأخرى عمليّة، وهي صيرورة الإنسان أكبر حجّة لله تعالى في خلقه، فإنّ عظمة مقامها معلومة لكلّ أحد.

وإن قلنا بما يستفاد من الكتاب والسنّة المقدسة -وهي متابعة الشريعة أصولاً وفروعاً، ومعرفة حجّة الله على الخلق- فالأمر أظهر وأبين.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، بفهم أسرار الكتاب العظيم وأخبار الأمم الماضين والعلوم التي تهمّكم وتزيد في علومكم، وتكون سبباً في تهذيب نفوسكم ممّا لم تكونوا تعلمونه سابقاً.

وهذ الآية على اختصارها تحتوي على أصول التربية والتعليم بالترتيب الذي أراده القرآن العظيم ابتداء بالتلاوة والتذكّر بآيات الله تعالى، ثمّ تزكية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل لتستعدّ لإفاضة العلوم عليها، ثمّ التعليم، ثمّ معرفة الأشياء بحقائقها والعمل بما عرفه، كلّ ذلك من طريق الشرع المبين.

وعليه ترجع التلاوة والحكمة إلى الكتاب الذي هو القرآن العظيم، فإنّهما وإن اختلفا في المؤدّى ولكنّهما متّحدان مصداقاً لكن الكتاب يظهر بأطوار مختلفة.

أقسام الشكر

إنّ الشكر من أجَلّ الصفات الحسنة، ومن أرفع مقامات العبودية، وهو على أقسام:

الأوّل: أن يكون من المخلوق للخالق، وقد رغّب إليه الكتاب والسنّة المقدسة ترغيباً بليغاً بأنحاء مختلفة بأن أضاف الشكر:

تارة إلى نفسه، قال تعالى: ﴿..أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ لقمان:١٤، وقال تعالى: ﴿..وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ..﴾ البقرة:١٧٢، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وأخرى إلى نعمه، قال تعالى: ﴿..وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ..﴾ النحل:١١٤، وهو يرجع إلى الأوّل، لأنّ كلّ ما بالعرَض لا بدّ من أن ينتهي إلى ما بالذات.

وثالثة: إلى نفس الشاكر، قال تعالى: ﴿..وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ..﴾ لقمان:١٢، فإنّ غاية الشكر إنّما يرجع إلى نفس الشاكر، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ..﴾ الإسراء:٧، ولا فرق في هذا القسم بين أن يكون الشكر على الآراء والمعتقدات الحسنة

تارة يكون الشكر لله تعالى لذاته بذاته بلا لحاظ عناية أخرى، لأنّه مبدأ الكلّ ومنتهاه فيستحقّ الشكر، وأخرى يكون على ما يَرِدُ منه تعالى على عبده من البلايا والمحن، فيشكر عليها كشكره على النعم، وهو شكر الخواصّ

والمعارف الحقّة، أو على النّعم الخارجية، وجميع ذلك مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿..يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة:٨٩، وقال تعالى: ﴿..وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل:٧٨، وقال تعالى: ﴿..وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الأنفال:٢٦، وهو مطابق للقواعد العقلية، لأنّ أساس معرفة الله تعالى مبنيّ على وجوب شكر المنعم عقلاً -وهذا الوجوب عقلي لا أن يكون شرعياً- ومعرفة الله تعالى من أرفع المقامات والكمالات الإنسانية التي وصل الإنسان إليها بحكم عقله.

الثاني: أن يكون من الخالق للمخلوق، قال تعالى: ﴿..وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ النساء:١٤٧، وقال تعالى: ﴿..وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ الإنسان:٢٢، بل «الشكور» من أسمائه تعالى الحسنى، فإنّ من عادة العظماء التشكّر ممّا يستحسنونه من أعمال الرعايا، وله دخل كبير في سَوق العباد إلى العمل وجلب قلوبهم.

الثالث: أن يكون من الخَلق لآخر مثله، وهو من مكارم الأخلاق، وقد ورد في الحديث: «**مَن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق**»، لانتهاء المخلوق ونعمه إلى الخالق، فالشكر له ينتهي بالآخرة إلى شكر نعمائه، وترك شكر المخلوق ينتهي إلى ترك شكر الخالق في سلسلة الأسباب.

ثمّ إنّ الشكر تارة يكون لله تعالى لذاته بذاته بلا لحاظ عناية أخرى لأنّه مبدأ الكلّ ومنتهاه فيستحقّ الشكر، وهو شكر أخص الخواصّ وأخلص أنواع الشكر وأعظمها.

وأخرى يكون على ما يَرِدُ منه تعالى على عبده من البلايا والمحن، فيشكر عليها كشكره على النعم وهو شكر الخواصّ، وهو كالأوّل من أجَلّ مقامات العارفين بالله تعالى.

وثالثة: يكون بإزاء النعمة، وهو شكر العامّة من الأنام ..

شُعَب الخيرات

عبادةَ ألفِ سنة

* عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«مَن قال في شعبان ألفَ مرّة: (لا إله إلّا اللهُ، ولا نعبدُ إلّا إيّاه، مُخلصينَ له الدّين ولو كَرِهَ المشركون)، كتبَ اللهُ له عبادةَ ألفِ سنة، ومحا عنه ذنْبَ ألفِ سنة، ويَخرجُ من قبرِه يومَ القيامَةِ ووجهُه يتلألأُ مثلَ القمرِ ليلةَ البدر، وكُتِب عند الله صِدِّيقاً».

(السيّد ابن طاوس، الإقبال: ٢٩٥/٣)

..وأكثروا منها

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«.. وأكثروا في شعبان من الصلوات على نبيّكم وأهله». إلى أن قال: **«وإنّما سُمّي شعبان شهر الشفاعة لأنّ رسولكم يَشفعُ لكلّ مَن يصلّي عليه فيه».**

(الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٥١٢/١٠)